الجدار

هل عاش أحدكم يومًا ذلك الإحساس بفقدان الهوية! فلا ماضٍ أو حاضر أو مستقبل!

هو ليس شعورًا مؤقتًا أو وصفَ حال لمرحلة زمنية.. فجأة وبدون سابق إنذار وجد نفسه بهذا المكان وكأنه قد وجد من العدم.

هو لا يتذكر شيئًا على الإطلاق.. فلا شيء يربطه بماضيه أو بحاضره، إنما يشبه الصفحة البيضاء.. ليس لديه رؤية للمستقبل.. لا شيء محدد بعقله وتفكيره.

هو حتى لا يملك اسمًا.. شعور مرعب أن تكون هكذا.

فكيف لإنسان أن يظل بلا شيء! حتى بدون اسم يجعله معرفًا وليس نكره..

غالبًا ما نفتقد ما لا نملكه، ويزداد تعلقنا به ولا نكف عن التفكير به.. فالحرية ليست رفاهية يمكننا الاستغناء عنها، أو من الكماليات التي يمكننا التعايش بدونها.

الحرية كانت، وستظل من أساسيات الحياة، بل ربما تكون هي الحياة ذاتها.

حاول جاهدًا أن يتبين معالم المكان، فربما يذكره بشيء أو يقوده لخيط يصل به لبر الأمان.. فإن كان لا يتذكر ماضيه أو يملك مستقبله، فالحاضر الذي يعيشه هو فقط مصدر وجوده.

حاول جاهدًا رؤية ما يحيط به بصعوبة بالغة، فالظلام دامس والمكان ضيق نسبيًّا.. لا يشعر بالحرية في حركته.. هنا فقط أدرك الحقيقة المؤلمة!

فهو مقيد، نعم! هو مقيد بحبل لا يستطيع التخلص منه أو الفكاك بعيدًا عنه.

أصبح الشعور بالخوف هو ما يسيطر عليه حرفيًّا.

تُرى لماذا هو مقيد؟ ومن يكون ذلك الذي قيده؟ وما الغرض من ذلك؟

حاول أن يفتح عينيه ببطء ليتبين معالم المكان، ولكنه فشل بذلك فشلًا ذريعًا.. لا يدري هل المشكلة بعينيه، أم بالظلام الذي يحيط به من كل حدب وصوب.

حاول دفع جسده بقوة فوجد، نفسه يغوص ويتكور أكثر فأكثر، ليرتفع وينخفض ويصطدم بجدار رخو يحيط به من كل جانب واتجاه.

استخدم قدميه بكل قوة، فربما يتحسس شيئًا ما ينبئه عن مكان احتجازه.. شعر بلزوجة غريبة أصابته برعشة وقشعريرة مخيفة.

شعر بالإرهاق والتعب قد نالا منه بعد هذا الجهد المبذول، فاستسلم للنوم مبكرًا على غير عادته.

لا يدري كم من الوقت قد مر عليه نائمًا! فهو بمكان احتجازه لا يشعر بالوقت ولا حساب للزمن.. قرر أن يستخدم حاسة السمع المرهفة، والتي يتمتع بها، فربما تقوده لشيء ما يوضح له حقيقة وضعه المرعب والمخيف.

بعد جهد ومحاولات مضنية استطاع أن يميز بعض الأصوات، ومن بين هذه الأصوات هناك صوت يتكرر كثيرًا وبوضوح تام.. صوت يشعر وكأنه قد سمعه من قبل، ربما بالماضي القريب أو السحيق.

بينما هناك أصوات أخرى تتغير وتتبدل تباعًا، وعلى فترات متباعدة ولا يستطيع تمييزها أبدًا.

تبًّا لهذا الجدار! فهذا الجدار هو ما يحرمه من الحرية، وهو ما يجعله مقيدًا وهو ما يجعله أسيرًا بمكانه المجهول.

آه لو يستطيع قطع هذا الحبل ومغادرة هذا الجدار ورؤية النور! أثناء تفكيره المستمر ومحاولاته المضنية لفهم ما يدور حوله، تعجب لأمر مهم لم يلتفت له من قبل ولم يعره اهتمامًا: فطعامه يأتيه بانتظام ودون أن يطلبه وكذلك شرابه.

هو أيضًا لا يعرف أو يرى من يقدمه له.. ولكنه ولدهشته يأكل ويشرب بانتظام تام.

تُرَى هل تستمر الحياة وتستقيم فقط بالطعام والشراب؟ هل يمكننا أن نقايض الحرية ببعض أساسيات الحياة الأخرى؟ لو امتنع عن تناول طعامه وشرابه ومارس حقه بالإضراب عن الطعام هل سيعجل هذا بخلاصه وحصوله على حريته؟ ربما نعم وربما لا.

أخيرًا استسلم لوضعه القائم.. لم يعد يشغل تفكيره بوضعه الراهن أو لماذا وكيف أو حتى متى الخلاص.

ربما قد تعود على حياته الجديدة أو ربما تعود على الظلام والهدوء.. حتى ذلك الحبل الذي يقيده لم يعد يمثل له مشكلة كما كان بالسابق، حتى إنه أصبح لا يحاول التخلص منه.

هنا طرأ على ذهنه سؤال مباغت: هل الاعتياد على شيء يجعله نمطًا طبيعيًّا وروتينيًّا للحياة؟ هل يصبح الإنسان أكثر انقيادًا مع كثرة الضغوط؟

تبادر ذلك إلى ذهنه عندما أصبح يشعر أنه اعتاد وتأقلم على وضعه، وما كان يضايقه من قبل أصبح شيئًا روتينيًّا.. حتى إن ذلك الجدار قد أصبح متكئًا له ولم يعد يراه كالسابق جدارًا عازلًا له عن الحرية.

فقط ما أصبح يزعجه حقًّا تلك الأصوات القادمة من خلف الجدار، فقد أصبحت أقوى وأكثر وضوحًا وضجيجًا عن ذي قبل.. وذلك الصوت المميز أصبح مألوفًا له جدًّا ومريحًا بنفس الوقت.

ذات يوم شعر بحركة كبيرة من حوله وارتجاج اهتزت له كل أركانه، فكأنما هناك زلزال قد اجتاح كل عالمه.

فجأة وجد نفسه يعلو ويهبط وجسده ورأسه تصطدمان بالجدار بقوة وعنف.

شعر بالحبل يلتف عليه من كل جانب ليطوق رقبته بقوة.. إنه يشعر بالاختناق الشديد.. أنفاسه تكاد تختفي.. (١٣) ثانية دون هواء كانت كافية ليشعر بالخدر يجتاح كامل جسده، وهو بطريقه لفقدان الوعي الجزئي.

حاول الصراخ بلا جدوى.. ولكن مهلًا ما هذا الصوت الذي يسمعه.. إنه صوت أنين وبكاء.

عندما أنصت وجده نفس الصوت المألوف له يبكي ويئن بحزن وألم.. مد يديه وقدميه محاولًا التخلص من ذلك الحبل الذي التف بقسوة وإحكام حول رقبته، ولكن دون جدوى.

هنا أدرك أن نهايته أصبحت محتومة وأنه بطريقه إلى النهاية.

استسلم لمصيره بيأس، فأغلق عينيه على ظلام دامس يحاصره من كل الاتجاهات.. شعر بالخدر يجتاح كل خلاياه وهو يفقد وعيه تدريجيًّا.

يقولون إن الإنسان بلحظاته الأخيرة يستعيد حياته السابقة كلها كشريط سينمائي (فلاش باك)، ولكن هذا لم يحدث معه أبدًا، فهو لا يملك ماضيًّا سحيقًا أو حتى ذكريات عابرة.

قبل غيابه عن الوعي الكامل ولأول مرة منذ أن أصبح محتجزًا خلف هذا الجدار يشعر وكأن هناك نافذة صغيرة قد تم فتحها بالجدار.

شعاع من ضوء قد اخترق الجدار، ليحيل ظلمته إلى نهار، حتى إنه أغمض عينيه بخوف وهلع.. وما إن اعتادت عيناه على هذا الضوء، حتى رأى –ومن تلك النافذة– بعض الأيادي تمتد، وهي تحاول جاهدة تخليصه من ذلك الحبل باستماته لإخراجه من خلف ذلك الجدار.

بدأ يستعيد أنفاسه تدريجيًّا، وكأنه يعود من سبات عميق.

فجأة وجد نفسه محمولًا بين الأيدي التي أخرجته من الجدار، بعد أن خلصته من الحبل بقطعه.

ما هذا المكان الذي أخرجوه إليه؟

لماذا يشعر بالقلق والانقباض؟

نظر إلى الوجوه بدهشة بالغة، وما أثار دهشته وحيرته أنهم كانوا يبتسمون وهم يوجهون كلماتهم إلى تلك السيدة المسجاة على طرف الفراش، وهي تئن وتتألم بنفس الصوت الذي كان يسمعه عندما كان أسيرًا خلف الجدار.

سمع أحدهم يقول بجدية بالغة: "لقد نجا من الموت المحقق بمعجزة إلهية فالحبل الصري كاد أن يخنقه بعد أن التف حول رقبته لـ (١٣) ثانية، ليمنع الهواء من الوصول لرئتيه، فذلك الحبل كاد أن يخنقه".

أردف الرجل قائلًا للسيدة المستلقية على الفراش شاحبة الوجه متقطعة الأنفاس: "وقوعك من أعلى الدرج سيدتي عجل بخروجه إلى الدنيا قبل موعده، ولكنه والحمد لله بصحة جيدة، ويتمتع ببنية قوية ووزن جيد".

هنا أدرك المأساة والتي كان يجهلها من قبل.

لقد أدرك أنه خرج من خلف ذلك الجدار؛ حيث كان ينعم بالأمان والراحة، بل وحيث كان ينعم بالحرية الحقيقية والمطلقة.

خرج من خلف الجدار لينضم لقافلة المختارين من البشر والذين وقع عليهم الاختيار الإلهي لخوض الاختبار البشري.

ومع تلك التهاني وتلك الوجوه الباسمة ومع تلك الحقيقة المؤلمة والمرعبة بنفس الوقت، والتي أدركها للتو لم يجد شيئًا يعبر به عن خوفه ورعبه من ذلك الاختبار سوى البكاء والصراخ بكل ما أوتي من قوة.